خلال كفاحهم في سبيل الاستقلال ، فان هذه الوضعية كانت تعاش بكيفية ماساوية · لم يكن كافيا ان نحدد انفسنا بالسلب تجاه الصهيونية ، وان نقول اننا مغاربة مخاطرين بالتخلي عن تلك المغايرة التي تشكل اصالة تجربتنا الوجودية نفسها : ان نكون يهودا وجزءا لا ينفصل عن بلاد اسلامية · لكننا اليوم ـ وهذا ما نحرص على التنبه اليه ـ نلاحظ ان الحديث الصهيوني الكلي قد بدأ يتبعثر ويتفتت بعد ان مر بتجربة الدولة ، فغدت تناقضاته واكاذيبه ومسلسلاته الاستلابية ، وطبيعته التضليلية ، تزداد وضوحا يوما بعد يوم · ومن ثم فان التوحيد ، بواسطة عنف هذا الحديث الصهيوني ، بين اليهودي والاسرائيلي ، وبين اليهودي والصهيوني ، يمكن ان يرفض اليوم وان تكون لهذا الرفض ، حظوظ في النجاح · على ان هذا الرفض لم يعد يقتصر على موقف احتجاجي · انه يتجسد في الاحداث ، وهنا نلتقي بمشكلة العودة · لقد طرح قانون العودة داخل اسرائيل، وهو يرمي الى منح كل يهودي اصبح اسرائيليا ، حق مغادرة اسرائيل ليعود الى بلاده الاصلية · ومن جانب البلدان العربية ، مثل المغرب مثلا ، فان حركة العودة تحظى رسميا بالتشجيع · الا ان الخطأ سيكون فادحا اذا اعتبرنا هذه العودة مجرد حركة آلية · ذلك ان الالتقاء من جديد بالهوية السيفارادية لا يمثل سوى نصف الطريق · والاقتصار على الصعيد الديني بدون تحمل اعباء مختلف الثقافات الوطنية التي غذت تلك الهوية ، يعتبر قطيعة لا مناص من التغلب عليها · انه من الصعب ، الاعتقاد بأن الديانة اليهودية سيفارادية تكون كيانا منفصلا ، وبان تعايشها مع الاسلام ومع بنياته الاجتماعية والقومية هو مجرد ظاهرة قائمة على التقابل الالي · ان موقفا منتبها للمميزات الاساسية لليهودية الشرقية ، سيبرهن بسهولة ، بانه لا يمكن اعتبارها كشريحة جامدة وضعت في واقع لن تقيم معه اي تبادل · لقد اسهبنا القول لنوضح باننا في نفس الحركة وبنفس الخطوات ، نتعرف على ذاتنا كيهود شرقيين وكمغاربة ، وبانه لا يمكن فصل احدهما عن الآخر ·

اذا كان الرهن الصهيوني قد شكل تهديدا خطيرا لهذه الهوية المزدوجة ، فان الادماج الذي دعا اليه وشجعه نظام الحماية الفرنسية ، يكون بدوره خطرا لم يختف بعد اثره

ان النموذج الغربي الذي حمله الغزو الاستعماري ، قد مارس تأثيرا عميقا على المستعمرين الذين افتتنوا به افتتانا كبيرا · وهذا الافتتان الذي لم يعش بنفس الطريقة من كون الجميع ، والذي كانت تأثيراته تخضع لايقاعات مختلفة ، لم يبدأ الشعور به حقيقة ، في بعض الحالات ، الا عندما انتهت السيطرة الاستعمارية سياسيا · ولا شك ان قوة الفتنة هي ابعث على الخشية من الاسلحة · وفي هذا المجال ، نجد ان اليهود المغاربة ، ومعظمهم من الفئات الموسرة ، قد استسلموا بسرعة لفتنة النموذج الغربي ، وذلك لاسباب تحتاج الى تحليل خاص لا يسمح به المقام · ان جميع الذين عاشوا وتحملوا هذه التجربة هي أخص صميميتهم ، يعرفون الى أي حد كان من الصعب التحكم في هذه الحركة البطيئة والمتحايلة « للتمدين » الغربي ، وبالتالي اصدار حكم تقييمي دقيق لها · ولم تبدأ عملية التقييم النقدي الا بعد فترة الاحتلال · لكن مثل هذه العملية ، كي تكون ممكنة ، لا بد لها ان تتصل في العمق بتحليل نقدي يشمل المجتمع الصناعي الاستهلاكي والمجتمع الجديد الذي يولد في المغرب بعد الاستقلال · اليوم فقط نستطيع ان ننظر الى الاشياء اذا انسقنا مع التيار على امتداد منحدرات الماضي · اربعون سنة من الحماية عملت كأنها مختبر عجيب بدون جدران ولا آلات ، وبدون سمات ولا طرائق محددة ولا ادنى فكرة واضحة ·